النشاط الثقافي في الغرب

الاتحاد السوفياتي

من حصاد الثقافة العربية

***

يرجع تاريخ الاهتمام بالثقافة العربية (لغة وتاريخا وفلسفة وادبا وفنا وفكرا) في الاراضي التي يتكون منها الاتحاد السوفياتي الى عدة قرون خلت . وليس بالسر ان نشير الى ان شعوب اسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس قد شاركت العرب في بناء حضارة واحدة، كبيرة ، عريقة ، هي الحضارة الاسلامية (التي اسهم فيها ممثلو العرب والارمن والجورجيين والاوزبك والطاجيك والتتر والاذربيجانيين والتركمانيين والداغستانيين) ، تلك الحضارة التي لا زالت كنوزها ومعطياتها لم تدرس جميعا . وليس من شان هذه الكلمة الوجيزة ان تدرس الاستعراب في الاتحاد السوفيتي ، او الاستعراب في عهد ما قبل اوكتوبر (فان ذلك من حقه ان يدرس في كتاب بل كتب ضخام) . انما نريد ان نتحدث هنا ، بما يتيحه لنا الوقت والحيز والاطلاع الذاتي والتتبع الشخصي ، عن اهم ما اتى به حصاد الاهتمامات بالثقافة العربية في الاتحاد السوفيتي ، لهذا العام الذي نودعه ، مستقبلين عاما جديدا .

***

ان الحديث عما جاء به عام ١٩٦٦ في حقل الدراسات والاهتمامات السوفياتية بثقافتنا العربية حديث طويل ، هو الاخر ، ويبدو اننا مضطرون للايجاز والاشارة ، تاركين الحديث في مثل هذه الحقول الاختصاصية الى اوقات اخرى مناسبة . ان من ابده بديهيات الحركة الاستعرابية والاشتراكية السوفياتية انها لا تدرس بدافع المجاملة ، ولا تبحث او تهتم بشيء ما لاجل غايات تجانف الموضوعية العلمية ، وروح الصداقة والتعاون مع الشعوب في بناء الحضارة البشرية الواحدة، السلمية والمتطورة نحو الافضل دائما . ولذلك فهنا لا نجد امثال لورنس او عبد الله فيلبي او سواهم . واذا كان لا بد من الخطأ في العمل ، فبالمقابل لا بد من اصلاحه وتخطيه . وهكذا فالحركة الاستعرابية السوفياتية ، والاهتمامات السوفياتية بالثقافة العربية بشكل عام تطورت ، وتخطت ما كانت عليه ، وآتت بالجديد ، والجيد النافع ، وان كان هذا لا يعفيها من احتمال الوقوع في التقصير ، وخصوصا كظاهرة فردية منفردة ، او ملمح جزئي في هذا الحقل او ذاك .

درس العرب لغة وتاريخا وفلسفة وفكرا وادبا وفنا في اكثر من جامعة في الاتحاد السوفياتي . وتزهو جامعات موسكو ولينينغراد وطاشقند وطاجيكستان وقازان وباكو وعشقابا وفرونزه وسمرقند وتفليس ويرفان وسواها بالاقسام الشرقية والعربية ، وبالكليات والمعاهد العربية والشرقية الاختصاصية . وتخطط الخطط ، سنويا ، لمزيد من الدراسات الاستعراضية والاستشراقية . وتؤلف الكتب وتنشر باللغة الروسية واللغات القومية عن الحضارة العربية القديمة والوسيطة والمعاصرة . وتعقد المناقشات والندوات والاماسي الادبية والفكرية والاجتماعية للتعريف بماضي العرب وحاضرهم وببلدانهم وتقدمهم وانجازاتهم .

وقد جاء عام ١٩٦٦ بمزيد من هذه الدراسات العامة والاختصاصية. فقد صدر باللغة الروسية كتاب « التاريخ الحديث للاقطار العربية » للدكتور ف. لوتسكي . وهذا الكتاب قيم من حيث مادته واسلوبه ومحتواه . فبتجرد علمي ودقة موضوعية خالصة استطاع مؤلفه استشراف الاحداث الاساسية للتاريخ العربي اعتبارا من الحروب التركية والبعثة النابليونية (١٧٩٩ ـ ١٨٠١) حتى ايامنا الحاضرة ، كما دون ـ مع التحليل والاستنتاج ـ تجارب العرب الكفاحية والتحررية وثوراتهم وانتصاراتهم . وقد تكشف المؤلف مؤمنا بانتصار انساننا العربي في كفاحه ضد الاستعمار والرجعية ، وواثقا بالمستقبل المشرق للشعوب العربية .

ونشر العالم غيورغي ميرسكي ، الاختصاصي في تاريخ الشرق العربي ، كتابه « الشعوب العربية تواصل نضالها » ، الذي حاول ، موفقا ، ان يجيب على اسئلة عديدة تطرحها الدراسات العربية التاريخية الحديثة ، وتثيرها احداث الشرق العربي ، مثل اسباب التوتر بين البلدان العربية واسرائيل ، وعزم العرب على بناء الاشتراكية ، وجوهر الاصلاحات في بلدان الشرق العربي ، وماهية الصعوبات التي يواجهها العرب المعاصرون في كفاحهم .

وثمة كتاب يلفت الانظار لقيمته العلمية الكبيرة ، وهو الكتاب الذي اصدرته اكاديمية العلوم السوفياتية ، للاستاذ غريغوريان ، من ارمينيا، تحت عنوان « فلسفة العصور الوسطى لشعوب الشرق الادنى والاوسط » . وقد تناول مؤلفه فيه بالبحث العلمي الدقيق النظرات الفلسفية والاضافات التي اتى بها فلاسفة مشهورون امثال الكندي والرازي وابن رشد وابن سينا وابن باجه وابن طفيل والغزالي وابن خلدون ، وشعراء مفكرون مثل ابي العلاء المعري . وللارمن ، بوجه عام ، اهتمام خاص بالثقافة العربية في سائر مراحلها التاريخية . واعمالهم العلمية هنا اكثر من ان تعد ، واذا كان لنا ان نشير فقط ، فاننا نشير الى عمل الباحث العلمي الاستاذ سورين شيرويان عن ابي العلاء المعري ، والى قصيدة الشاعر الارمني السوفياتي الشهير افتيك اسحاقيان عن « ابي العلاء المعري » .

واتى عام ١٩٦٦ بمزيد من الدراسات التي تتناول البلدان العربية في حضارتها وواقعها المعاصر ، فصدر كتابان عن العراق ، وكتاب عن لبنان . وسجلت الترجمات من العربية الى الروسية واللغات القومية الاخرى اضافات جديدة ، تميزت بتحسن مستوى الترجمة ذاتها ، وبالشمولية في الاختيار ، دون التقيد بقيود معينة مما يجانف الغايات الحضارية والانسانية للترجمة والتبادل الفكري والثقافي . فترجمت اعمال ليوسف ادريس ونجيب محفوظ (ترجمت قصة « السمان والخريف » ثم قصة « اللص والكلاب ») . ويرى النقد السوفياتي في قصة « اللص والكلاب » تأكيدا جديدا من نجيب محفوظ لوفائه لافضل ما يعتز به ادب الواقعية الانتقادية من التقاليد الانسانية . ومنذ امد قريب صدر كتاب « البخلاء » للجاحظ وقد ترجمه البروفسور كارلامبي باراتوف . ورشحت رواية القاص العراقي غالب طعمة فرمان « النخلة والجيران » للترجمة .

ولم يقتصر الامر على الترجمة ، في مجال التعريف ، ولا على التاليف ، وانما تجاوزه الى عقد دورات المحاضرات والندوات عن التاريخ العربي والادب العربي والحضارة العربية المعاصرة . ففي لينينغراد حوضر عن الفن العربي في القرون الوسطى ، وعقدت ندوة للاحتفال بذكرى امين الريحاني ، ويعقد دار الصداقة في موسكو ، ومعهد شعوب اسيا ومعهد اللغات الشرقية في جامعة موسكو ، باستمرار، ندوات تتناول بالمناقشة والتحليل والعرض كفاح وتاريخ وادب الشعوب العربية . وفي طاشقند وطاجيكستان وباكو كان ثمة مثيل لهذه الاسهامات .

وقد تحدث انس خالدوف رئيس القسم العربي لفرع معهد شعوب اسيا في لينينغراد عن كنز المخطوطات العربية في لينينغراد ، فذكر ان كتبا مثل « التاريخ المنصوري » و « تاريخ الخلفاء » لمؤلف مجهول ، وكتاب « المجموع المبارك » لمؤلف مجهول هو الاخر ، و « تحفة ذوي الالباب في من حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب » ... ان امثال هذه الكتب موجودة في خزانات معهد شعوب اسيا لدى اكاديمية العلوم السوفياتية في لينينغراد . وثمة ايضا سجلات قديمة نادرة لمؤلفات شهيرة مثل « الكامل في التاريخ » و « تاريخ ابن مسكويه » ، و « العيلم الزاخر في أحوال الاوائل والاواخر » للجنابي .. ويواصل علماء لينينغراد دراسة امثال هذه المخطوطات ، وتحقيقها ، وفهرستها .

وفي طاجيكستان ترجم ف. ديميدشيك ، بمساهمة العالم العربي محمد منير مرسي (من الجمهورية العربية المتحدة) كتاب اغناطيوس كراتشكوفسكي ، المستشرق السوفياتي الشهير ، وأبي الاستشراق السوفياتي ، وهو الذي يحمل عنوان « مع المخطوطات العربية » . ويبدىء في طاجيكستان ايضا العمل لاصدار كتابين عن « الشعر السوداني في القرن العشرين » و « الشعر العراقي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين » .

***

وقد درست في الاونة الاخيرة ، وفي عام ١٩٦٦ بالذات ، في الاتحاد السوفياتي لا الامور التي تتعلق بماضي العرب وحضارتهم المعاصرة فحسب ، بل حتى الامور التي تتعلق بالشعوب التي قطنت اراضي البلدان العربية ، قبل العرب ، مثل الشعب المصري القديم ، والبابليين والاكديين . فصدرت الترجمة الروسية لاشعار مصرية قديمة ، وطلعت في كتاب حمل مثل هذا العنوان « شعر مصر القديمة الغنائي » ، وفيه اسهمت الشاعرة الروسية الكبيرة ، والمتوفاة مؤخرا ، آنا احماتوفا في الترجمة . وأصدر نيقولاي تيخونوف مجموعة اقاصيص تحكي سفراته ولقاءاته بالادباء العرب ، ومنهم ميخائيل نعيمة ، في لبنان ، وتحدث عن هيكل الشمس في بعلبك ، وواصل بذلك العمل الذي قام به ، في مطلع هذا القرن ، الشاعر الروسي السوفياتي الشهير ايفان بونين . ان « ليلة القدر » لتيخونوف هي مجموعة اقاصيص رائعة حقا ، كتبتها ريشة شاعر محب للشرق والعرب (ولعلنا نستطيع ترجمها في مستقبل قريب) .

وشارك الاختصاصيون والعلماء المستعربون والادباء السوفيات في مهرجانات ومواسم عزيزة على قلوب الادباء العرب ، والعرب عامة ، نخص منها بالذكر مهرجاني امين الريحاني وعمر فاخوري ، وكلاهما عقد في لبنان . فتحدث الكاتب الشهير ف. اوزيروف ، في مقالته « من الممتع التحدث مع هؤلاء الناس » ـ التي ترجمناها (للانباء السوفياتية، في ايار ١٩٦٦) ، قائلا : « ان المناقشات والمناظرات العملية في المواضيع الادبية التي استلزم الامر اجراؤها في لبنان تدفعنا الى استنتاجات ذات طبيعة مزدوجة . فاولا يزداد هناك الاهتمام بالادب السوفياتي المعاصر تكنه لم يف بعد تماما بالامال المعقودة عليه . وثانيا ثمة مسائل جمالية عامة مشتركة لا تدع الخبرة التي تكدست عندنا في حلها اللبنانيين عديمي الاكتراث » . وتناول اوزيروف في هذه الكلمة مسائل القديم والجديد ، والتقاليد الادبية والتراث ، وذكر انه وجه ، بصفته رئيس تحرير مجلة « قضايا الادب » ـ وهي المجلة النظرية الادبية الشهيرة لا في الاتحاد السوفياتي بل على صعيد عالمي ـ الى ادباء لبنانيين كبار ، عدة اسئلة ، من مثل : كيف تفهم مسألة الادب والشعب .. وكيف تنظر الى وتقف من موضوع التجديد الفني والتقاليد. وقد نشرت مجلة « قضايا الادب » ، فعلا ، في عام ١٩٦٦ ، اجابات بعض الادباء ، مثل الدكتور سهيل ادريس ، وسعيد عقل ، وعلي احمد سعيد (ادونيس) وغيرهم .

اما الكاتب السوفياتي اناتولي بوتشاروف ، الناقد الادبي المعروف ، فقد مثل بلاده في المهرجان الذي اقيم في ذكرى وفاة الاديب العربي الكبير عمر فاخوري . وقد حاضر في بيروت عن « الادب السوفياتي اليوم » . وكانت الاديبة المستعربة السوفياتية والمترجمة الصليعه ، أيلينا ستيفانوفا ترافق كلا من اوزيروف (في أحتفالات امين الريحاني) وبوسماروف (في مهرجان عمر فاخوري) .

***

على ان الامر الذي يلفت النظر حقا هو الدراسات الاختصاصية والبحوث المستمرة في اللغة العربية ذاتها . ان تلامذة كراتشكوفسكي يواصلون ، هنا ، عمله مستهدين بروحه العلمية الجادة ، وتقاليده . وهنا بالذات تتميز جورجيا بغنى خاص . فان غ. تسيريتيللي و ا. ليفاشفيلي يواصلان ، منذ زمن ، بحوثهما العميقة في اللغة العربية ، واللغات السامية عموما . وقد كشف المؤتمر المكرس للغات والاداب السامية الذي عقد في موسكو ، كشف عن سعة الاهتمام الذي يبديه علماء ومستعربو جورجيا وأذربيجان وأوزبكستان ولينينغراد وموسكو في حقل دراسة اللغة العربية . ان مستعربين شهيرين امثال جميل بشيروف وعادل قربانوف وغريغوري شربآتوف وافينكوف ، لا زالوا يواصلون اعمالهم ودراساتهم وبحوثهم الجادة في مسائل لغوية اختصاصية كاللهجات العربية وادوات التعريف والصفات ، ناهيك عن دراسة لهجة عرب اسيا الوسطى في بخارى وطاجيكستان . ان فيكتور بيلياييف وبافي خالدوف وديميدتشيك وسواهم يأتون بالجديد ، القيم ، في مثل هذه الحقول ، وان كانوا لم يقدموا كل ما التزموا به ، ولعل الصعوبات التي تواجههم ، ومنها ضيق الوقت ، وكثرة المشاغل ، تعذرهم ، موقتا ، في هذا . ان دراسة عرب بخارى هي امر ماتع جدا، ويهم كلا الطرفين ، العرب والسوفيات (تقد التقيت في رحلتي في اسيا الوسطى في سمرقند وبخارى ببعض اخواننا العرب هؤلاء) .

ومن أهم الكتب التي صدرت مؤخرا ، في حقل تدريس اللغة العربية : كتاب المستعرب الطاشقندي الشهير باقي خالدوف . يتألف هذا الكتاب من قسم تمهيدي (٨ دروس) وقسم أساسي (٣٤ درسا) . وهو مبني على اساس من اللغة العربية الادبية المعاصرة . وتقدم في هذا الكتاب معلومات لا يرقى اليها الشك في علم تركيب وتكوين الكلمات، وعلم النحو والصرف . وفي عداد مؤلفي الكتب الادبية والاجتماعية والسياسية ، التي استشارها واقتبس منها المؤلف في كتابه ، ادباء عرب معروفون مثل محمود تيمور وطه حسين وتوفيق الحكيم وبنت الشاطىء وعبد الرحمن الخميسي وميخائيل نعيمة واحمد بهاء الدين . ومع ذلك لم يخل الكتاب ـ وكل كتاب ، كأي عمل ، يحمل الايجاب والسلب ، ويحمل ويعد بامكانية صياغته بشكل افضل ـ من نواقص ، مثل الافتقاب المخل في شرح التراكيب الصوتية ، والتحدد ، في اكثر من موضع ، باللهجة المصرية الدارجة ، وعدم التعريف بادباء عرب اخرين من مختلف البلدان العربية . ومع ذلك فالكتاب حظي باهتمام واسع ، وقدمت عليه طلبات كثيرة من مختلف معاهد كازاخستان ، وقرغيزيا ، وبشكيريا ، وتتاريا ، ناهيك عن اقدم معهد للدراسات الشرقية في الاتحاد السوفياتي (الكلية الشرقية لجامعة لينينغراد) .

وفي قازان ، في تتاريا ، صدر المعجم الذي ننتظر صدور امثاله في سائر بلدان اسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس ، وهي بلدان تلك الشعوب التي اسهمت معنا في حمل مشاعل حضارة واحدة ، خالدة المعطيات ـ نعني الحضارة الاسلامية الكبرى في القرون الوسطى ـ وهذا المعجم يحمل مثل هذه التسمية (معجم الكلمات العربية والفارسية الدخيلة في اللغة التترية) . وقد صدر مترجما النص والكلمة والتعبير ، الى اللغة الروسية ايضا ، وبذلك تخطى اهميته المحلية الى صعيد عالمي ، فما من شك ان اللغة الروسية اصبحت احدى اللغات العالمية الكبرى الحية في عالمنا المعاصر . وقد اسهم ثلاثة اختصاصيين في تصنيف هذا المعجم وهم : ك. خامرين، وم. محمودوف، و وغ. سيف الله (في النسبة تصبح سيف اللين) . واحتوى المعجم اكثر من ١٢ الف كلمة وتعبير ومصطلح عربي في اللغة التترية . ان هذا العمل العلمي الجليل ينبغي ان يحظى باكبر التقدير . ومثيله في الاهمية المعجم الروسي ـ العربي المدرسي الذي اصدره غريفوري

شرباتوف ، الا ان ما يعاب عليه هو كونه محدودا ، وغير واف في الاستعمالات الادبية ، والترجمية – ان جاز لنا التعبير . وفي هذا الحقل لا زالت الحاجة ماثلة لاصدار قاموس روسي عربي كبير يجيب ويطمن سائر المتطلبات التي يواجهها ويعاني منها الباحثون والدارسون والمترجمون وسائر الاختصاصيين . ومع ذلك فثمة اهتمامات في اصدار معاجم – نقتضيها الاغراض العملية – تترجم الكلمات والتعابير في اللهجات العامية (كالمصرية والسورية والعراقية وسواها) الى اللغة الروسية . وفي معاجم اخرى اختصاصية ، او لنقل اضيق اختصاصا ، كمعاجم المصطلحات الاقتصادية والتجارية تتجلى قدرة وبراعة وسعة احاطة بعض المستعربين السوفيات باللغة العربية ، ونشير هنا الى ما صدر من اجزاء ، في دورات محاضرات الاستاذ جميل علي بشيروف ، المستعرب السوفياتي البارز .

***

ومع ذلك فليس هذا بكل شيء . فقد تضمنت الموسوعات السوفياتية التي صدرت في عام ١٩٦٦ كثيرا من الوان مظاهر الاهتمامات والبحوث والتعريفات بالثقافة والحضارة العربية قديمة ووسيطة وحديثة . فقد عرفت موسوعة السينما (في جزئها الاول) بالسينما المصرية والعراقية واللبنانية ، وتحدثت عن اعلام فننا السينمائي ، امثال صلاح الدين ابو سيف ومحمد كريم ويوسف الغاني وآخرين . اما الموسوعة الادبية الوجيزة فقد تحدثت في جزئها الثالث (الصادر عام ١٩٦٦) عن الادريسي ، ويوسف ادريس ، وأديب اسحق ، وكعب بن زهير ، وقاسم امين ، وعن الادب العراقي ، والقصيدة العربية (كلون ادبي) ، والقرآن . وقد تحدثت في اجزاء سابقة آخرى ، صدرت في الاعوام الماضية ، عن الادب المصري القديم والحديث ، والادب العربي على نحو عام ، واللغة العربية ، والخط والكتابة العربية .

***

وبعد ، فالاستعراب السوفياتي والاهتمامات السوفياتية بالثقافة والحضارة والبلدان العربية في ماض وحاضر ومستقبل .. كل هذا يعد بخير في كمه وكيفه . واذا خلصت النيات – وهذا امر متوفر وقائم كحقيقة موضوعية ، واستعين بالمزيد من العلماء والباحثين والاختصاصيين العرب ، من شتى البلدان العربية ، واكثر من الوفود واللقاءات والندوات والمؤتمرات والجولات العامية (كما كان يفعل خالد الذكر كراتشكوفسكي) ، واذا تعاونا اكثر فاكثر نحن العرب ، من جانب اخر ، حكومات وشعوبا واتحادات ادبية ، مع الاصدقاء السوفيات ، فان الحصاد سيكون اوفر واخصب ، وسيكون الخير الذي يجنيه الشعبان العربي والسوفياتي ، في قابل الاعوام ، خيرا عميقا حقا ، يسهم بدوره ، في ترصين الثقافة والحضارة العالمية في كوننا هذا .

موسكو — جليل كمال الدين

فرنسا

تحفة قديمة .. تهز باريس

***

مضى اربعون عاما على اخراج فيلم « اكتوبر » واحد من روائع ايزنشتين . ومع هذا فمنذ ايام فقط بدأ عرضه في باريس وسط هالة واسعة من الاهتمام . جريدة « اللوموند » مثلا نشرت مقال ناقدها السينمائي جان دوبارونسللي في الصفحة الاولى . وبادرت معظم الصحف والمجلات الى تحليل هذا الفيلم ودراسة اهميته الفنية .. بينما تنتظم كل يوم ، وعلى طول شارع شامبليون العتيق حيث يعرض الفيلم ، صفوف المتفرجين منذ الساعة الثانية وحتى اخر الحفلات . كل ينتظر دوره لمشاهدة عمل قرأ وسمع عنه الكثير .

انها قصة الايام العشرة التي هزت العالم . الايام التي انتهت بسقوط « قصر الشتاء » في بطرسبرغ مقر كيرنسكي والحكومة المؤقتة في يد البروليتاريا . والتي فصلت بشكل حاسم بين امتدادين من امتدادات التاريخ الكبيرة . وليس مهما هنا آن نستعيد جزئيات وتفاصيل الحدث ، لا لانه اصبح معروفا لدى الجميع ، بل لان ايزنشتين نفسه يتحاشى جمود « العرض الوثائقي » والسرد الحدثي محاولا بصورة اساسية امتحان قدرة الاداة السينمائية على التعبير والعطاء . انه يريد ان « يكتشف » كم ان الكشف مطمح صعب لن يساوي شيئا البتة ما لم يعادل في غناه التاريخ نفسه .

في عام ١٩٢٧ ، حين بدأ تصوير فيلمه ، لم تكن الاحداث الكبيرة قد اغبرت في الذاكرة . ولم تكن الهزة التي زلزلت جذور الواقع واركانه قد تلاشت اصداؤها بعد . على العكس من ذلك كان الفاصل الزمني القصير بمثابة تربة اختمار اتاحت للشعب – كما هي العادة – ان ينسج من تلك الاحداث حكايات وامثالا وسيرا لا تخلو من مذاق الاسطورة . ولهذا فحين يقامر مخرج سينمائي في استحضار تلك الوقائع مجسدة انما يعرض نفسه لاخطار عديدة . هل يستطيع مثلا آن يعطي عملا يتناغم مع الصورة الحية في ذاكرة الشعب ؟ هل يمكنه ان يتحاشى نقص ومحدودية الصورة السينمائية ؟ أبمقدوره ان يتجاوز الواقع دون ان يخونه ، فتكون صورة الفترة التي يقدمها للناس عاشوا هذه الفترة قادرة ايضا على هزهم وتجديد طاقات الثورة فيهم ؟ تلك وسواها اسئلة صعبة سيجدها كل مخرج امامه تتحداه ، وتدفع في طريقه كثيرا من الوهدات والصعاب . وآذ قبل ايزنشتين التحدي ، فقد رصد نفسه « للاكتشاف » رغم آن معطيات السينما في عصره كانت هزيلة لا تسمح باكثر من أفلام صامتة . وقد كان يدرك هذه الحقيقة بشكل جلي ، فنسمعه يقول : « في بوتمكين ثمة شيء من المعبد الاغريقي ، اما اكتوبر فانه آلى حد ما نوع من الفوضى . وبعض اقسامه تجريبية بشكل خالص . تلك هي طرائق « الاخراج المثقف » التي سنمضي فيما أعتقد مستقبلا . ومن ناحية شخصية اكتوبر آهم من بوتمكين » .

ومنذ البداية تقريبا ، يمكن ان نلحظ في التحقيقة فرقا لا يمارى فيه بين فيلمين « المدمرة بوتمكين ، واكتوبر » . وفي هذا الفرق بالذات ، نكمن كل اهمية اكتوبر ، والتجديدات التي حققها ايزنشتين فيه . وان جاز التشبيه ، فاننا نستطيع آن نقول بان بوتمكين نشيد شعبي ذو ايقاع متواتر واضح ، اما اكتوبر فانه سيمفونية عنيه واسعة ، مليئة باللقطات الموهوبة والتلمحات الخلاقة . وكما ان الفرق بين النشيد والسيمفونية يلخص الفرق بين التجربتين فانه ايضا يفسر الى حد ما نمو ايزنشتين السينمائي وما رمى اليه بقوله « الاخراج المعقد » .

فاللقطة رغم اهميتها في « بوتمكين » كانت بسيطة وسهلة. ابعادها الاساسية تكمن في تغيير فكرة « البطل » في السينما ، فقدم بدلا من الفرد شعبا كاملا ترصد الكاميرا حركته باتقان مدهش وبوحدة متماسكة أخاذة . اما هنا ، فان اللقطة تتعقد وتغدو مركبة ، كما ان طاقتها التعبيرية تغتني بالروح الملحمية ، وباشكال البيان الشعري من استعارة وكفاية و ... لنستطيع ان تؤلف في نموها وتدفقها السيمفونية التي تعيد رواية التاريخ في شكل من الاسطورة . وحين أتحدث عن الموسيقى ، لا أعني أبدا سيمفونية بروكيفييف الرائعة التي وضعت لتكون موسيقى الفيلم التصويرية ، وانما أقصد تلك الانغام الباطنية التي تنفجر من ثنايا اللوحة السينمائية .. من صمتها ومنظورها للعالم والتاريخ .

ان تكتب الموسيقى بالكلمات : بالضبط ذلك ما كان يريده ايزنشتين ، ولكن ليس بالكلمات بل بالصورة . فوق ذلك كان يريد ان يلغي الحواجز بين اشكال التعبير ، وان يحشدها جميعا (بقوة الموهبة) فقط في تأليف هارموني يضج بالكلمات رغم صمته . ولهذا فان كل لقطة تصبح تجربة ثرية تتراكم وراءها دراسات واسعة في مشاكل الفن عامة والسينما خاصة .

يبدأ الفيلم بتحطيم تمثال القيصر نيقولا الثاني . التمثال شاهق يطل على الساحة صلفا عاتيا . ويتسلق رجل قاعدة التمثال .. ثم تتسلقها امرأة .. ثم رجل ثان .. ثم . وتربط كل اجزاء التمثال

بالحبال . عشرات الحبال . مئات الحبال . وفجأة تنتقل الكاميرا الى الجماهير التي تحتشد في الساحة ، والتي هي بالذات بطل الفيلم الحقيقي . وتنشد كل الحبال . تراكم الصلف والقسوة والاستغلال في تمثال القيصر يواجهه غضب شعب بدأ يمارس ارادته .. وتسقط يد القيصر .. تنشد الحبال وتسقط رجله .. تنشد الحبال ويسقط رأسه .. تنشد الحبال وتسقط بقاياه . هكذا يبدأ الفيلم . سقط القيصر ، وتسلمت مقاليد الامور حكومة مؤقتة يرأسها كيرينسكي . كيرينسكي ؟ ونصطاد الكاميرا وهو يصعد درج قصر الشتاء . يصعد ويصعد . ومع كل طابق تعلن لوحة واحدة من وظائفه العديدة .. (ديكتاتور .. رئيس الاركان .. وزير الحربية .. وزير البحرية .. الخ ..) . السلالم التي تكاد ألا تنتهي ، والقدمان المتعبتان اللتان تتلاهثان وهما تصعدان هذا الجهرم من المركزية الساحقة والوظائف الكثيرة . ثم الحياة الداخلية التي يعيشها . تمثال نابليون والترف والنعاس الابدي . وبهذه اللقطات القليلة استطاع ايزنشتين ان يتغلغل الى خبايا وضع فاسد ومتهدم ، وان يكشف حتى المنابت الاولى للعفن والسوس . ومن خلال التناقض الذي برع في استخدامه ، كان ينجلي وجها الصراع في دراما التاريخ العفنة .

كورنيلوف يجرد جيشه للقضاء على تباشير الثورة مصرحا بأنه يحارب (من اجل الله والوطن) .. من اجل الله ؟ وتردد العدسة هذا التساؤل الساخر .. ثم تبدأ في استعراض كل افكار الشعوب عن (الله) بدءا من المسيح وحتى آلهة الزنوج . ومع كل فكرة ينبثق التساؤل ساخرا : من أجل الله ؟ او عن اي من الالهة يريد كورنيلوف ان يدافع ؟!

ومن اجل الوطن ؟ ما هو وطن كورنيلوف ؟ وتقفز الكاميرا الى صناديق الميداليات المسكوكة .. الى رمز الامتيازات والمنافع لتقول هذا هو وطن كورنيلوف . والحكومة المؤقتة مومياءات على كراس . وخارج أسوار قصر الشتاء تنضج الثورة ، فتبث الحياة في كل جمادات العالم ، وتعطيها طاقة الارتباط بالمستقبل ، طاقة الطموح والانبعاث . حين يعلن « مندوب محلات الدراجات » انضمام جماعته الى الثورة ، لا نرى حماس هذه الجماعة ولا انصهارها في بوتقة « اتل » الجياش بارادة التغيير ، بل نشهد صورة خلابة لعجلات الدراجات .. لجنازيرها وهي تدور .. تدور منسارعة عنيفة ، وكأنها تتخطى الزمن لتمسك بتلابيب المستقبل . العالم ليس حياديا بعد . انه مع ايقاعات السيمفونية ، هو ايضا يلم شعث اشيائه ومواده وينحول ايجابا وثورة . حتى المعادن الجامدة بعد أن ينطلق شعار (أيها البروليتاريون تعلموا صنع الاسلحة) ، تمتلىء بالطاقة . تتراكض .. تتجمع .. تصبح بنادق ورشاشات . وفي قصر الشتاء ينقل الهواء .. يعطن الهواء . يمتزج نعاس كورينسكي بوجه نابليون المضحك . تركد مظاهر الترف ركود الحياة في وجوه اعضاء الحكومة المؤقتة . ويعصف في القاعات الفارغة الشتاء الاخير .

اني لن احاول الحديث عن كل ما يهز في الفيلم ، لان ذلك سيستغرق كثيرا من الوقت ، فضلا عن يقيني بأن تحليل الموسيقى الى كلمات لا يغني عنها ، كما انه لا يستطيع أن يستوعبها . فيلم ايزنشتين تراث فني مليء بالدراسات التي تشكل منعطفات حاسمة في الاتجاهات السينمائية . وكم يبدو ذلك واضحا حين نقارن (ويقينا لا مجال للمقارنة) بين فيلم اكتوبر ، وبين فيلم اخر تعرضه باريس اليوم هو « الدكتور جيفاكو » . هل نتساءل عن الفروق ؟ لا اعتقد ان هناك ضرورة لذلك .. فبعد أن خرجت من فيلم جيفاكو الملون ذي المشهد العريض الساحر ، لم أجد ما يقال عنهما الا ان اكتوبر فن أبدعته موهبة . أما جيفاكو فتسلية حضرتها كميات كبيرة من النقود . ولكن يبقى حس الخيبة بأن السينما الاميركية لا تكتفي بتشويه « السينما كأداة فنية » ، بل انها ايضا ، ودون قلق ، تشوه أعمالا كبيرة لتصنع سلبياتها .

باريس — سعد الله ونوس

المرأة في شهواتها ونزواتها

هنري دي مونترلان ، الكاتب الفرنسي الشهير ، عرى المرأة بلا فجور ، كشف عن اسرارها الحميمة ، فضح خفاياها ، حل ألغازها ، أوضح أحاجيها ومعمياتها ، طرحها على المشرحة روحا وجسدا ، دقق في نزواتها وشهواتها وميولها جملة وتفصيلا ، فما ترك منها شاردة ولا واردة في مختلف مراحل الحياة ، ومختلف الاحوال والمناسبات .

في « الفتيات » تحدث عنها مراهقة تحلم بالحب ، وتتوق الى الرجال ، وتتسلح بمظاهر الحشمة والعفاف ، ثم تسقط مستسلمة ، هائمة ، يكويها الشبق اللاهب .

وفي « رحمة للنساء » درسها متلهفة ساعية الى اللذة بعقلها وقلبها ، تصلي في حبها ، وتحب في صلاتها . تعفر وجهها على قدمي الحبيب ، ثم تثور عليه ثورة لبوءة أصابتها السهام ، فتنهش ، وتخدش ، وتحاول البطش ، ثم لا تلبث ان تنهار شلوا يئن طالبا الرفق والغفران .

وفي « شيطان الخير » عالجها عانسا تملأ نفسها الكآبة ، ويرعبها فرار الدنيا من بين يديها ، فتتهافت على ما تبقى لها من حطام الشباب وفلول الغرام ، واذا بها عارية من العزة ، خالية من الكرامة ، كل ما فيها شهوة تتبذل ، وجنس يستجدي .

وفي « الموبوءات » عرضها مزيجا من الانوثة المحتدمة والغباء المطبق ، فاذا هي كالمخدر الفاتل ، تحمل في جسدها الخطر ، ولا مفر منها لمن أدمن عليها ، وألف أدرانها ، وغاص في موبقاتها ، وشرب سمها حتى الثمالة .

هذه السلسلة التي تعتبر أروع ، وأصرح ، وأصدق ما كتب في المرأة حتى اليوم ، نقلها الى العربية الاستاذ جورج مُصروعة ، ونشرتها **دار المكشوف** ، بيروت ، ص.ب ٥٨١ .

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب